

شفاء الداء

بشرح حديث أبي الدرداء

(٢٧ ذو القعدة ١٤٣٦ هـ)

لأبي عبد الرحمن

عبد الرقيب بن علي بن أحمد أبو عبد الرحمن الكوكباني

كان الله له في الدارين

بمسجد أم القرى صنعاء

حرسها الله



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣). أما بعد:

^(١) سورة آل عمران: (١٠٢).

^(٢) سورة النساء: (١).

^(٣) سورة الأحزاب: (٧٠-٧١).

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. وإنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين.

معاصر المسلمون، روى الترمذي في جامعه^(٤) بسند صحيح من حديث أبي الدرداء عويمر رضي الله عنه: قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟». قالوا: بلى. قال: «ذكر الله تعالى».

هذا حديث عظيم، أيها المسلمون حوى فضائل الذكر أو بعض فضائل الذكر. وصحابيه أبو الدرداء^(٥) ذلكم الصحابي الجليل الذي ذكر في خبره أنه قبل المبعث في الجاهلية صادقاً لأبي رواحة، فلما جاء الإسلام اعتنقه عبد الله بن رواحة واعترض عنه أبو الدرداء وتمر الأيام والليالي حتى يحرص عبد الله بن رواحة على دعوة أخيه إلى الإسلام فيدخل في داره يوماً وهو غير موجود، فيكسر صنمه. فيأتي

^(٤) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٩٥)، والترمذي (كتاب الدعوات/ باب ٧ - ٧/ (٣٣٧٧)/ أحوذني)، وابن ماجه (كتاب الأدب/ فضل الذكر/ (٣٧٩٠)/ دار السلام)، وصححه الإمام الوادعي رحمه الله في "الصحيح المسند" (١٠٣٨)/ دار الآثار).

^(٥) هو عويمر بن زيد بن قيس، الأنصاري الخزرجي، حكيم هذه الأمة، وسيد القراء بدمشق. ("سير أعلام النبلاء" ٢ / ص ٣٣٥).

أبو الدرداء فيجمع كسره فيقول للصنم: هلا امتنعت، هلا دفعت عن نفسك، فأخبر بذلك أم الدرداء فقالت: لو كان ينفع أو يدفع عن أحد لدفع عن نفسه. فأمر امرأته أن تهيء ماء في المغتسل فاغتسل ثم لبس حلتته ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعلن إسلامه ودخل نور الإسلام في قلبه^(٦).

وتمرّ الأيام والليالي وهذا الصحابي حسن إسلامه يوماً بعد يوم ويزكو إيمانه يوم بعد يوم وكان مصباحاً منيراً ومثالاً رائعاً في الزهد والعبادة، ولكن رسول الله ربما نصحه ببعض النصائح بالرفق بنفسه. نعم أيها المسلمون.

تنسب إليه تلك الأبيات الجميلة^(٧):

يريد المرء أن يؤتى مناه * ويأبى الله إلا ما أَرادَا

^(٦) أخرجه ابن سعد في طبقاته: ... وكان أبو الدرداء آخر أهل داره إسلاماً فجاء عبد الله بن رواحة، وكان أخاً له في الجاهلية والإسلام، فأخذ قدوماً فجعل يضرب صنم أبي الدرداء وهو يقول: تبرأ من أسماء الشياطين كلها ألا كل ما يدعى مع الله باطل.

وجاء أبو الدرداء فأخبرته امرأته بما صنع عبد الله بن رواحة ففكر في نفسه فقال: لو كان عند هذا خير لدفع عن نفسه، فانطق حتى أتى رسول الله صومعه عبد الله بن رواحة فأسلم.

("الطبقات الكبرى" / لابن سعد / ٧ / ص ٣٩١).

^(٧) ذكره عمر التلمساني في "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" (٣ / ٥٦٧).

يقول المرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أحسن ما استفادا

وذكر عنه أنه قال^(٨): كنت تاجرا قبل المبعث، فلما جاء الإسلام، جمعت التجارة والعبادة، فلم يجتمعا، فتركت التجارة، ولزمت العبادة.

وعلق عليه الذهبي رحمه الله^(٩): الأفضل جمع الأمرين مع الجهاد، وهذا الذي قاله، هو طريق جماعة من السلف والصوفية، ولا ريب أن أمزجة الناس تختلف في ذلك، فبعضهم يقوى على الجمع، كالصديق، و عبدالرحمن بن عوف، وكما كان ابن المبارك، وبعضهم يعجز، ويقتصر على العبادة، وبعضهم يقوى في بدايته، ثم يعجز، وبالعكس، وكل سائغ. ولكن لا بد من النهضة بحقوق الزوجة والعيال.

معاشر المسلمين، أبو الدرداء اجتهد في العبادة جدا حتى نسي كثيرا من حظوظه الدنيوية.

^(٨) ذكر في "سير أعلام النبلاء" (٢ / ص ٣٣٧-٣٣٨). وأخرجه ابن سعد فقال: أخبرنا أبو معاوية الضريير قال: حدثنا الأعمش عن حثيمة عن أبي الدرداء به. ("الطبقات الكبرى" / لابن سعد / ٧ / ص ٣٩١).

وأخرجه ابن أبي شبة (٢٢١٨٣) من طريق الأعمش به.

و حثيمة هو ابن عبد الرحمن ثقة كما في "تهذيب التهذيب". ولم نعلم سماعه عن أبي الدرداء.

^(٩) ذكر في "سير أعلام النبلاء" (٢ / ص ٣٣٧-٣٣٨).

عن أبي جحيفة رضي الله عنه^(١٠) قال: آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين سلمان، وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال: كل؟ قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال: سلمان قم الآن، فصليا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فذكر ذلك له، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «صدق سلمان»^(١١).

نعم، شاهدنا: أن أبا الدرداء كان حريصا على العبادة مقدما لمرضاة ربه وطاعته وربما نسي بعض حظوظه من الأمور الدنيا.

^(١٠) أخرجه البخاري (١٩٦٨).

^(١١) قال ابن حجر رحمه الله: وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (صدق سلمان) أي: في جميع ما ذكر. وفيه منقبة ظاهرة لسلمان. ("فتح الباري" / ٣ / ص ٣٢).

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله: قوله: (صدق سلمان) فيه دليل على مشروعية النصح للمسلم وتنبه من غفل، وفضل قيام آخر الليل، وثبوت حق المرأة على الزوج في حسن العشرة، وجواز عن المستحبات إذا خشي أن ذلك يفضي إلى السامة والملل وتقويت الحقوق المطلوبة، وكراهة الجهل على النفس في العبادة، وجواز الفطر من صوم التطوع. ("نيل الأوطار" / ٤ / ص ٣٠٥).

معاشر المسلمين، لأبي الدرداء درر من الكلام التي تروى عنه في "سير أعلام النبلاء" أو "تاريخ ابن عساكر" أو غير ذلك من المصادر. يقول رضي الله عنه: تفكر ساعة خير من عبادة الليلة^(١٢).

ويقول: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله^(١٣). يعني: حتى يبغض أناس في المعاصي إذا صدرت منهم ثم يرجع إلى نفسه فمقته أشد مقتاً.

^(١٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (١١٧) فقال: أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، حدثنا سعدان بن نصر، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء به.

هذا السند صحيح.

^(١٣) أخرجه ابن بطة في "إبطال الحيل" رقم (٢٠) فقال: حدثنا أبو جعفر محمد بن سليمان النعماني الباهلي، حدثنا عبد الله بن عبد الصمد، حدثنا مخلد بن يزيد، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي الدرداء به.

وأخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٧ / ص ١٧٢) من طريق أبي الحسين بن بشران أنا أبو علي بن صفوان أنا أبو بكر بن أبي الدنيا حدثني سريج بن يونس نا محمد بن عبد الرحمن الطفاوي عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الدرداء به.

أبو جعفر محمد بن سليمان النعماني الباهلي كان من الثقات. ("تاريخ بغداد" / ٥ / ص ٣٠٢).

وقال: لا يكون الرجل عالماً حتى يكون متعلماً ولا يكون الرجل متعلماً حتى يكون عاملاً بما يعلم. وإن أخوف ما أخاف أن أسأل يوم قيامة: قد علمت، فماذا عملت بما علمت؟^(١٤)

عبد الله بن عبد الصمد هو أبو خداش، قال النسائي: لا بأس به. ("تهذيب الكمال" / ١٥ / ص ٢٣٦).

مخلد بن يزيد هو أبو يحيى القرشي، قال ابن معين: ثقة وكذا قال أبو داود ويعقوب بن سفيان. وقال أبو حاتم: صدوق. ("تهذيب التهذيب" / ١٠ / ص ٦٩).

وأبو قلابه يوصف بالتدليس في المرتبة الأولى في "طبقات المدلسين" لابن حجر، فلا بأس عنعنته.

فالسند حسن إن شاء الله، وهو صحيح بالسند الثاني.

^(١٥) أخرجه الخطيب في "اقتضاء العلم بالعمل" برقم (٥٠) فقال: أخبرنا الحسن بن أبي بكر، قال: أنبأ أبو سهل أحمد بن محمد بن عبد الله بن زياد القطان، ثنا عبد الكريم بن الهيثم، قال: ثنا أبو البيان، قال: ثنا حريز، عن ابن أبي عوف، عن أبي الدرداء، قال: «إن العبد يوم القيامة لمسؤول: ما عملت بما علمت»

أبو سهل أحمد بن محمد بن عبد الله بن زياد القطان، كان صدوقاً أديباً شاعراً. ("تاريخ بغداد" / ٢ / ص ٣٩٨).

عبد الكريم بن الهيثم كان ثقة ثبتاً. ("تاريخ بغداد" / ٥ / ص ٥٧).

ابن أبي عوف هو عبد الرحمن قاضي حمص، وهو من مشايخ حريز بن عثمان. قال: أبو داود: شيوخ حريز كلهم ثقات. ("تهذيب الكمال" / ١٧ / ص ٣٣٠).

وقال: ويل للذي لا يعلم، مرة. وويل للذي علم ولم يعمل، سبع مرات^(١٥).

وقال: إياكم وخشوع النفاق. قالوا: ما خشوع النفاق يا أبا الدرداء؟ قال: أن يرى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع^(١٦).

والذي يظهر أنه مجهول الحال.

فالسند ضعيف.

^(١٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٦٢٣) فقال: في حدثنا الفضل بن دكين قال حدثنا جعفر عن ميمون أن أبا الدرداء قال به.

وأخرجه وكيع في "الزهد" (٢١١) عن جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران به.

ميمون بن مهران هو أبو أيوب الرقي الفقيه، ثقة. ("تهذيب التهذيب" / ١٠ / ص ٣٤٩).

ولا يذكر في "طبقات المدلسين" لابن حجر. وهو ممكن اللقاء مع أبي الدرداء.

فالأثر صحيح إن شاء الله.

^(١٦) أخرجه الإمام أحمد في "الزهد" (٧٧٠) فقال: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا محمد بن خالد الضبي، عن محمد بن سعد الأنصاري، عن أبي الدرداء به.

ومن طريقه أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٦٥٦٧).

نعم أيها المسلمون. وقال له رجل يوماً أوصني. قال: اذكر الله في السراء
يذكرك في الضراء. وإذا ذكر الأموات فاجعل نفسك كأحدهم. وإذا أشرفت نفسك
على شيء من الدنيا فانظر إلى ما يصير^(١٧).

يحيى بن آدم هو يحيى بن آدم بن سليمان الأموي ثقة. ("تهذيب التهذيب" / ١١ / ص ١٥٤).

محمد بن خالد الضبي، قال أبو حاتم: ليس بحديثه بأس. ("تهذيب التهذيب" / ٩ / ص ١٢٧).

محمد بن سعد الأنصاري لعله محمد بن سعد بن أبي وقاص القرشي الزهري أبو القاسم المدني، وهو ثقة.
("تهذيب التهذيب" / ٩ / ص ١٦١).

فالأثر حسن إن شاء الله.

^(١٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الفرج بعد الشدة" [ص ٧٩] فقال: حدثنا يعقوب بن عبيد، ومحمد بن عباد،
قالا: أنا يزيد بن هارون، قال: أنبا حريز بن عثمان الرحبي، قال: ثنا راشد بن سعد، قال: جاء رجل إلى
أبي الدرداء، فقال به.

السند صحيح، ورشد بن سعد هو المقرئ الحمصي. ثقة. ("تهذيب التهذيب" / ٣ / ص ١٩٥).

وأخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" [١ / ٢٠٩] من طريق أخرى.

انظر إلى عاقبة أمر الدنيا. الطعام مثلاً. عن أبي بن كعب^(١٨)، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن مطعم ابن آدم جعل مثلاً للدنيا، وإن قزحه وملحه، فانظر إلى ماذا يصير».

معاشر المسلمين كان لأبي الدرداء مقام عال في قلوب الصحابة والتابعين. فربما قال ابن عمر يوماً: حدّثونا عن العاقلين. فيقال: ومن العاقلان؟ قال: معاذ وأبو الدرداء^(١٩).

وقال بعض التابعين يوماً: إن أبا الدرداء من العلماء والفقهاء الذين يشفون من الداء^(٢٠).

^(١٨) كما في "غاية المقصد في زوائد المسند" (٢ / ٣٠٨٧)، وأخرجه الطبراني في "الكبير" برقم (٥٣١)، وابن حبان في صحيحه برقم (٧٠٢). وصححه العلامة الألباني في "الصحيح الجامع" والعلامة الوادعي في "الجامع الصحيح" رحمه الله عليهما.

^(١٩) أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" [٢ / ٣٥٠] فقال: أخبرنا قبيصة بن عقبة، أخبرنا سفيان عن ثور عن خالد بن معدان قال: كان عبد الله بن عمرو يقول حدّثونا عن العاقلين، فيقال: من العاقلان؟ فيقول: معاذ وأبو الدرداء.

في سنده قبيصة وروايته عن الثوري ضعيفة، ولم أجد له متابعا.

^(٢٠) أخرجه ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" [٧ / ص ٢٧] فقال: نا الحسن بن علي بن مهران المتوثي نا على بن بحر بن برى ثنا سفيان بن عيينة عن بن أبي مليكة قال سمعت يزيد بن معاوية يقول به.

يعني: بإذن الله. فهم أطباء القلوب. أطباء للأرواح والأفئدة والأذهان بما عندهم من العلم وسلطان القلوب.

نعم أيها المسلمون. كان معاذ بن جبل يوصي بالعلم عند أناس منهم أبو الدرداء وسلمان الفارسي وعبد الله بن سلام وابن مسعود. وجمع من الصحابة^(٢١). يوصي بنيل العلم عندهم لما لهم من الفضيلة ولما لهم من جمع العلم وتحصيله والفقه فيه.

الحسن بن علي بن مهران المتوثي كان صدوقاً. ("الجرح والتعديل" / ٣ / ص ٢١).

علي بن بحر بن برى ثقة. ("الجرح والتعديل" / ٦ / ص ١٧٦).

يزيد بن معاوية قال فيه أبو محمد: ليس هذا يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. ("الجرح والتعديل" / ٧ / ص ٢٧).

فالأثر حسن.

^(٢١) أخرجه الترمذي (٣٨٠٤) بسند صحيح عن يزيد بن عميرة قال: لما حضر معاذ بن جبل الموت قيل له يا أبا عبد الرحمن أوصنا. قال: أجلسوني فقال: إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما. يقول ذلك ثلاث مرات. والتمسوا العلم عند أربعة رهط عند عويمر أبي الدرداء وعند سلمان الفارسي وعند عبد الله بن مسعود وعند عبد الله بن سلام الذي كان يهوديا فأسلم، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنه عاشر عشرة في الجنة».

معاشر المسلمين، كان أبو الدرداء فيما ذكر عنه يخاف المظالم أيما خوف فربما قضى بين اثنين فيقبي مترددا بعد ما قضى بينهما بالحق لكنه يخاف من الظلم فإذا أدبرا ووليا عنه نظر إليهما فدعاهما وقال: ارجعا أعيدا عليه قضيتكما^(٢٢).

وذكر في سيرته العاطرة أنه كان له من الأحياء فوق ثلاثمائة يدعوهم في صلاته وفي أوقات الإجابة فسئل عن ذلك فيقول: ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا وكل الله به ملكاً يقول: ولك بمثل. أفلا أحب أن تدعولي الملائكة^(٢٣).

^(٢٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في الزهد برقم (٨٤٥) فقال: حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري، حدثنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد به.

السند إلى يحيى بن سعيد -وهو الأنصاري- صحيح.

^(٢٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ص ١٨٨-١٨٩) فقال: قرأت على أبي غالب بن البنا عن أبي إسحاق البرمكي أنا أبو عمر بن حيوية أنا أحمد بن معروف نا الحسين بن الفهم نا محمد بن سعد أنا موسى بن مسعود النهدي نا عكرمة بن عمار عن أبي قدامة محمد بن عبيد الحنفى عن أم الدرداء قالت: كان لأبي الدرداء ستون وثلاثمائة خليل في الله يدعو لهم في الصلاة. قالت أم الدرداء: فقلت له في ذلك: فقال: إنه ليس رجل يدعو لأخيه في الغيب إلا وكل الله به ملكين يقولان: ولك بمثله. أفلا أرغب أن تدعولي الملائكة.

في سنده موسى بن مسعود النهدي هو أبو حذيفة. وقال عبد الله بن أحمد سمعت أبي يقول: قبيصة أثبت منه حديثا في سفیان أبو حذيفة شبة لا شيء وقد كتب عنهما جميعا. وقال عثمان الدارمي عن بن معين: هو مثلهم

يعني في سفيان مثل قبيصة وطبقته. وقال بندار: موسى بن مسعود ضعيف في الحديث كتبت عنه كثيراً ثم تركته. ("تهذيب التهذيب" / ١٠ / ص ٣٣٠).

وعكرمة بن عمار، قال الإمام أحمد: عكرمة مضطرب الحديث عن غير إياس بن سلمة، وكان حديثه عن إياس صالحاً. ("تهذيب التهذيب" / ٧ / ص ٢٣٣).

وأبو قدامة محمد بن عبيد الحنفي هو محمد بن عبد الله بن أبي قدامة الدؤلي الحنفي. ("تهذيب التهذيب" / ٩ / ص ٢٤١). وهو يعتبر مجهول الحال.

فالسند ضعيف.

وله متابع أخرجه ابن عساكر أيضاً [٤٧ / ١٨٨] فقال: أخبرنا أبو القاسم الشحامى أنا أبو بكر البيهقي أنا أبو منصور ابن محمد العلوي إملاء وأبو الحسين بن الفضل القطان قراءة قالوا أنا علي بن عبد الرحمن بن ماتي بالكوفة نا ابن أبي غرزة نا قبيصة نا سفيان عن شعيب عن أبي إياس عن أبي الدرداء قال: إني لأدعو لناس من إخواني وأنا ساجد اسميهم بأسمائهم وأسماء آبائهم.

في سنده علي بن عبد الرحمن بن ماتي، وهو على بن عبد الرحمن بن عيسى بن زيد بن ماتي أبو الحسين الكاتب، وكان ثقة. ("تاريخ بغداد" / ١٢ / ص ٣٢).

وابن أبي غرزة هو الامام، الحافظ الصدوق، أحمد بن حازم بن محمد بن يونس بن قيس بن أبي غرزة، أبو عمرو الغفاري الكوفي، صاحب "المسند". ("سير أعلام النبلاء" / ١٣ / ص ٢٣٩).

وكان رجلاً رقيق القلب سريعة العبرة عند مشاهد العبرة.

كان الدمع يجري على خديه في المواقف الرقيقة. فصَحَّ عن جبير بن نفير^(٢٤) قال: لما فتحت قبرس وفرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض رأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره بينا هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله عز وجل فصاروا إلى ما ترى.

ذكر أنه لما احتضر هذا الرجل الصالح الصحابي الجليل جعل الناس يعودونه فيقولون: ماذا تشتكي؟ قال: أشتكي ذنوبي. قالوا: فماذا تشتهي؟ قال:

ولكن قبصة هو قبصة بن عقبة. قال ابن أبي خيثمة عن يحيى بن معين: هو ثقة، إلا في حديث سفيان الثوري ليس بذلك القوي. وقال يعقوب بن شيبه: كان ثقة صدوقاً فاضلاً، تكلموا في روايته عن سفيان خاصة، كان ابن معين يضعف روايته عن سفيان. ("شرح علل الترمذي" / لابن رجب / ص ٣٧٦).

فالسند ضعيف.

ولكنه بما قبله يدل على ثبوت أصل القصة.

وله متابع آخر أخرجه ابن عساكر بعد ذلك.

^(٢٥) أخرجه الإمام أحمد في "الزهد" (٧٧١ / صحيح).

أشتهي الجنة. قالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: هو الذي أضجعني^(٢٥). يعني: الأمر إليه والحكمة البالغة له سبحانه.

روي عنه وهو يحتضر قال: لمثل يوم هذا فأعدوا.

نعم، وشيء كبير وكثير في السير والتراجم من أشباله وشمائله وآدابه الجم التي عرفت به بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

معاشر المسلمون، روى الترمذي في جامعه بسند صحيح من حديث أبي الدرداء عويمر رضي الله عنه: قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «ألا أنبئكم

^(٢٥) أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" [٣٩٣ / ٧] فقال: أخبرنا عفان بن مسلم وسليمان بن حرب قالوا: حدثنا أبو هلال قال: حدثنا معاوية بن قرة أن أبا الدرداء اشتكى، ... القصة.

وأخرجه أبو بكر الدينوري في "المجالسة وجواهر العلم" برقم (٥٠) عن عفان به.

وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" [٢١٨ / ١] من طريق أبي هلال به.

وأبو هلال هو الراسبي كما في "تاريخ دمشق" [٤٧ / ١٩٥]. وهو محمد بن سليم. قال الإمام أحمد بن حنبل: يحتمل في حديثه إلا أنه يخالف في قتادة وهو مضطرب الحديث. ("تهذيب التهذيب" ٩ / ص ١٧٣).

فالسند ضعيف من أجله.

بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم^(٢٦)، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟». قالوا: بلى. قال: «ذكر الله تعالى»^(٢٧).

نعم، رسول الله يعلم الصحابة بالوسائل شتى، ومنها: السؤال والاستفهام حتى يشد انتباه الصحابة والسامعين فيقول: (ألا أنبئكم) العرض وشد انتباه السامعين لأنه ربما ألقى هذا العلم وبعض الناس لا يزال شرد ذهنه ههنا وههنا

^(٢٦) قال محمد عبد الرحمن المباركفوري رحمه الله: وأزكاها أي أنماها وأنقاها والزكاء النماء والبركة. عند مليكم المليك بمعنى المالك للمبالغة. ("تحفة الأحوذى" / ٩ / ص ٢٢٤).

^(٢٧) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وقد أشرت إليه مستشكلا في أوائل الجهاد مع ما ورد في فضل المجاهد أنه كالصائم لا يفطر وكالقائم لا يفتر وغير ذلك مما يدل على أفضليته على غيره من الأعمال الصالحة. وطريق الجمع والله أعلم: أن المراد بذكر الله في حديث أبي الدرداء الذكر الكامل وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب بالتفكير في المعنى، واستحضار عظمة الله تعالى، وأن الذي يحصل له ذلك يكون أفضل ممن يقاتل الكفار مثلا من غير استحضار لذلك، وأن أفضلية الجهاد إنما هي بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرد. فمن اتفق له أنه جمع ذلك كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره وكل ذلك حال صلاته أو في صيامه أو تصدقه أو قتاله الكفار مثلا فهو الذي بلغ الغاية القصوى، والعلم عند الله تعالى. وأجاب القاضي أبو بكر ابن العربي بأنه ما من عمل صالح إلا والذكر مشترط في تصحيحه. فمن لم يذكر الله بقلبه عند صدقته أو صيامه مثلا فليس عمله كاملا، فصار الذكر أفضل الأعمال من هذه الحيثية. ("فتح الباري" / لابن حجر / ١١ / ص ٢١٠).

فإذا ألقى سؤالاً إليهم ولم يجدوا جواباً أنصتوا وأصغوا إلى جوابه. وهذا أسلوب سائر في أساليب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فهو الذي قال يوماً^(٢٨): إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنما مثل المسلم فحدثوني ما هي^(٢٩)؟ فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت^(٣٠). ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة».

وذكر ابن القيم وجوه التشابه بين النخلة والمؤمن من عشرة صور وأوجه^(٣١).

^(٢٨) أخرجه البخاري (٦١) ومسلم (٢٨١١) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

^(٢٩) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ففي هذا الحديث إلقاء العالم المسائل على أصحابه وتمرينهم واختبار ما عندهم. ("زاد المعاد" / ٤ / ص ٣٦٤).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم امتحان العالم أذهان الطلبة بما يخفى مع بيانه لهم إن لم يفهموه. ("فتح الباري" / لابن حجر / ١ / ص ١٤٦).

^(٣٠) قال ابن حجر رحمه الله: وفيه استحباب الحياء ما لم يؤدي إلى تفويت مصلحة ولهذا غنى عمر أن يكون ابنه لم يسكت. ("فتح الباري" / ١ / ص ١٤٦).

^(٣١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وفيه ما تضمنته تشبيه المسلم بالنخلة من كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، وثمرها يؤكل رطباً ويابساً وبلحاً ويانعاً، وهو غذاء ودواء وقوت وحلوى

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال^(٣٢): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تعدون الشهيد فيكم؟» قالوا: يا رسول الله من قتل في سبيل الله فهو شهيد. قال: «إن شهداء أمتي إذا لقليل» قالوا: فمن هم؟ يا رسول الله. قال: «من قتل في سبيل الله فهو شهيد ومن مات في سبيل الله فهو شهيد ومن مات في الطاعون فهو شهيد ومن مات في البطن فهو شهيد»^(٣٣).

أيضا يقول رسول الله في خطابه وأساليبه للناس: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال^(٣٤): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ». قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وشراب وفاكهة. وجذوعها للبناء والآلات والأواني، ويتخذ من خوصها الحصر والمكاتل والأواني والمراوح وغير ذلك. ومن ليفها الجبال والحشايا وغيرها. ثم آخر شيء نواها علف للإبل، ويدخل في الأدوية والأكحال، ثم جمال ثمرتها ونباتها وحسن هيئتها وبهجة منظرها وحسن نضد ثمرها، وصنعتة وبهجة ومسرة النفوس عند رؤيته. فرؤيتها مذكرة لفاطرها وخالقها وبديع صنعتة وكمال قدرته وتمام حكمته، ولا شيء أشبه بها من الرجل المؤمن إذ هو خير كله ونفع ظاهر وباطن. ("زاد المعاد" / ٤ / ص ٣٦٤).

^(٣٢) أخرجه مسلم (١٩١٥).

^(٣٣) قال ابن حجر رحمه الله: وقد اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة. ("فتح الباري" / ٦ / ص ٤٣).

^(٣٤) أخرجه مسلم ((٦٧٤٤)).

بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(٣٥).

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما^(٣٦) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الصبح بالحدبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر

^(٣٥) قال القرطبي رحمه الله: أي: هذا أحق باسم المفلس، إذ تؤخذ منه أعماله التي تعب في الدنيا في تصحيحها بشروطها حتى قبلت منه، فلما كان وقت فقره إليها أخذت منه، ثم طرح في النار. فلا إفلاس أعظم من هذا، ولا أخسر - صفقة ممن هذه حاله. ففيه ما يدل على وجوب السعي في التخلي من حقوق الناس في الدنيا بكل ممكن، والاجتهاد في ذلك، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً، فاجمع من الأعمال الصالحة، فلعله بعد أخذ ما عليه تبقى له بقية راجحة، والمرجو من كرم الكريم لمن صحت في الأداء نيته، وعجزت عن ذلك قدرته أن يرضي الله عنه خصومه فيغفر للمطالب والمطلوب، ويوصلهم إلى أفضل محبوب. ("لفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم" / ٢١ / ص ١٠٢).

^(٣٦) أخرجه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١).

بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا^(٣٧)، فذلك كافر بي^(٣٨) ومؤمن بالكوكب».

أمثلة كثيرة.

فرسول الله يقول من باب الحرص على دخول الفائدة على أذهان السامعين:

^(٣٧) قال الإمام الشافعي رحمه الله: رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - "بأبي هو وأمي" هو عربي واسع اللسان يحتمل قوله هذا معاني، وإنما مطر بين ظهراي قوم أكثرهم مشركون لأن هذا في غزوة الحديبية، وأرى معنى قوله، والله أعلم أن من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك إيمان بالله لأنه يعلم أنه لا يمطر ولا يعطي إلا الله عز وجل وأما من قال مطرنا بنوء كذا، وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه أمطره نوء كذا فذلك كفر كما قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه، ولا لغيره شيئا، ولا يمطر، ولا يصنع شيئا فأما من قال: مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا بوقت كذا فإنما ذلك كقوله مطرنا في شهر كذا، ولا يكون هذا كفرا، وغيره من الكلام أحب إلي منه (قال الشافعي): أحب أن يقول مطرنا في وقت كذا. ("الأم" / للشافعي / ١ / ص ٢٨٨).

^(٣٨) من نسب النعمة إلى مجرد السبب لا إلى الله تعالى فقد أشرك. قال شيخ الإسلام رحمه الله: والأسباب التي جعلها الله أسبابا لا تجعل مع الله شركاء وأندادا وأعوانا. ("مجموع الفتاوى" / ٢٧ / ص ٩٥).

«ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟». قالوا: بلى. قال: «ذكر الله تعالى»^(٣٩).

هذه مزايا كثيرة لذكر الله تعالى: هو خير الأعمال، وأزكاها عند الله، وأرفعها في الدرجات، وخير من نوافل الصدقات، وخير من نوافل الجهاد، نعم، هذه مزايا جمّة ولكنها لا تنحصر ههنا فيما ذكر من فضائل الذكر، بل الذكر له فضائل لا يحويها مقام واحد^(٤٠)، ولكن نذكر منها ما تيسر إضافة إلى ما ذكره رسول الله عليه وسلم.

الذكر يا معاشر المسلمين سباق ناجح في ميادين العمل الصالح بدون كبير عناء ولا كبير مجهود بدني. روى مسلم^(٤١) في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان

^(٣٩) قال عز الدين بن عبد السلام في قواعده: هذا الحديث مما يدل على أن الثواب لا يترتب على قدر النصب في جميع العبادات، بل قد يأجر الله تعالى على قليل الأعمال أكثر مما يأجر على كثيرها فإذا الثواب يترتب على تفاوت الرتب في الشرف انتهى. (كما في "تحفة الأحوذى" / ٩ / ص ٢٢٤).

^(٤٠) قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: وفضائل الذكر كثيرة جدا لا يحيط بها كتاب وحسبك أنه أكبر من الصلاة قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ("الاستذكار" / ٢ / ص ٥١٧).

^(٤١) أخرجه مسل (٢٦٧٤).

فقال: «سيروا هذا جمدان سبق المفردون». قالوا: وما المفردون؟ يا رسول الله. قال: «الذاكرون الله كثيرا والذاكرات»^(٤٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه^(٤٣): أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق^(٤٤). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفلا أعلمكم شيئا

^(٤٢) قال الإمام النووي رحمه الله: قال ابن قتيبة وغيره وأصل المفردين الذين هلك أقرانهم وانفردوا عنهم فبقوا يذكر الله تعالى. وجاء في رواية هم الذين اهتزوا في ذكر الله أى لهجوا به. وقال ابن الأعرابي: يقال فرد الرجل إذا تفقه واعتزل وخلا بمراعاة الأمر والنهي. ("شرح النووي على مسلم" / ١٧ / ص ٤).

^(٤٣) أخرجه البخاري (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥) وهذا اللفظ.

^(٤٤) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: وفي الحديث: دليل على قوة رغبة الصحابة - رضي الله عنهم - في الأعمال الصالحة الموجبة للدرجات العلى والنعيم المقيم، فكانوا يحزنون على العجز عن شيء مما يقدر عليه غيرهم من ذلك. وقد وصفهم الله في كتابه بذلك، بقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : ((لا حسد إلا في اثنين))، فذكر منهما : ((رجل آتاه الله مالا ، فهو يتفقه في وجهه ، فيقول رجل : لو أن لي مالا ، لفعلت فيه كما فعل ذلك)) . فلذلك كان الفقراء إذا رأوا أصحاب الأموال يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون وينفقون حزنوا على عجزهم عن ذلك ،

وتأسفوا على امتناعهم من مشاركتهم فيه ، وشكوا ذلك إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فدهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على عمل ، إن أخذوا به أدركوا من سبقهم ، ولم يدركهم أحدٌ بعدهم ، وكانوا خير من هم بين ظهرائهم ، إلا من عمل مثله ، وهو التسبيح والتحميد والتكبير خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين .

وهذا يدل على أن الذكر أفضل لأعمال ، وأنه أفضل من الجهاد والصدقة والعق و غير ذلك .

وقد روي هذا المعنى صريحاً عن جماعة كثيرة من الصحابة ، منهم : أبو الدرداء ومعاذ وغيرهما .

وروي مرفوعاً من وجوه متعددة - أيضاً .

ولا يعارض هذا حديث الذي سأل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عما يعدل الجهاد ، فقال : ((هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر ، وتقوم فلا تفتر)) - الحديث المشهور ، لأن هذا السائل سأل عن عمل يعمل في مدة جهاد المجاهد من حين خروجه من بيته إلى قدومه . فليس يعدل ذلك شيء غير ما ذكره ، والفقراء دهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على عمل يستصحبونه في مدة عمرهم ، وهو ذكر الله الكثير في أدبار الصلوات ، وهذا أفضل من جهاد يقع في بعض الأحيان ، ينفق صاحبه فيه ماله .

فالناس منقسمون ثلاثة أقسام ، أهل ذكر يدومون عليه إلى انقضاء أجلهم ، وأهل جهاد يجاهدون وليس لهم مثل ذلك الذكر . فالأولون أفضل من هؤلاء . وقومٌ يجمعون بين الذكر والجهاد ، فهؤلاء أفضل الناس .

ولهذا لما سمع الأغنياء الذين كانوا يحجون ويعتصمون ويجاهدون ويتصدقون بما علم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الفقراء من ذلك عملوا به ، فصاروا أفضل من الفقراء حينئذ ؛ ولهذا لما يألوا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن ذلك ، قال : ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)) .

تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتهم؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

الذكر معاشر المسلمين يحفي طمأنينة على القلب ورطوبة على اللسان، فإذا القلب مطمئنة واللسان رطبا فما الظن بما يخرج من هذا اللسان من أطيب الكلام كأطيب الثمر. فإذا كان اللسان قاسياً صلباً فلا يخرج منه إلا سيء الكلام وأقبحه ولا يوفق القائل للخير وهو غافل عن ذكر الله. ربما أراد أن ينفع فأضر، وربما أراد أن يحسن فأساء. ولكن من كان لسانه رطباً فإن الكلام الخير يخرج كالدرر من لسانه لأن لسانه رطب من ذكر الله. قال الله عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٤٥) [الرعد: ٢٨].

(انتهى من "فتح الباري" / لابن رجب / ٦ / ص ١٠٥-١٠٦).

^(٤٥) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: هو حقيق بذلك. ("تفسير القرآن العظيم" / ٤ / ص ٤٥٥).

وما ظنك بما يحدثه الغناء وألفاظ الخنا في القلوب من القسوة والشرود والموت؟ وحبّ القران وحبّ ألحان الغنا في قلب عبد ليس يجتمعان.

نعم، الطمأنينة تكون بذكر الله. انظر إلى من يسمع القرآن في سيارته أو في داره وأو في طريقه كيف تجده مهذب الأخلاق والقول وجميل الفعال مسددا في مواقفه^(٤٦).

ومن كان مع الطيش والهوى كيف يكون كالصبيان والمجانين في الطيش في لسانه وبنانه وفعاله كلها؟^(٤٧)

^(٤٦) عن أبي شريح الخزاعي ، رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : «أبشروا أبشروا أستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟» قالوا : نعم ، قال : «فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله عز وجل وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً» . (أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٠٠٦) وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٢٠٣٦) / صحيح).

^(٤٧) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره تكلم بهذه المحرمات أو بعضها. ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالى. والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك. فمن عود لسانه ذكر الله صان لسانه عن الباطل واللغو. ومن ييس لسانه عن ذكر الله تعالى ترطب بكل باطل ولغو وفحش، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ("الوابل الصيب" / ص ٦٤).

نعم لأن الذكر يكسب القلب طمأنينة. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٤٨)

يا من كان يشكو من ضيق الصدر والقلب وربما انتحر على جراء هذا وأعقابه. أين أنت من ذكر الله؟ (٤٩)

(٤٨) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وأخبر أن القلوب تطمئن به أي تسكن إليه من قلق الجهل والريب والشك كما يطمئن القلب إلى الصدق ويرتاب بالكذب فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ > الرعد ٢٨ < ، وجعل هذا من أعظم الآيات على صدقه وأنه حق من عنده ولهذا ذكره جوابا لقول الكفار ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فقال: ﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴿أَيُّ بَكْتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ وَهُوَ ذَكَرُهُ وَكَلَامُهُ. وَلَوْ كَانَ فِي الْعَقْلِ الصَّرِيحِ مَا يَخَالِفُهُ لَمْ تَطْمَئِنُّ بِهِ قُلُوبُ الْعُقَلَاءِ وَالْعَاقِلِ اللَّيِّبِ إِذَا تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَتَدَبَّرَ كَلَامَ هَؤُلَاءِ الْمَعَارِضِينَ لَهُ تَبَيَّنَ أَنَّ الرِّيْبَةَ كُلَّهَا فِي كَلَامِهِمْ وَالْطَّمَأْنِينَةَ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. ("الصواعق المرسلة" / ٢ / ص ٤٠).

(٤٩) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما وجلأؤه بالذكر فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء فإذا ترك صدئ فإذا جلأه وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنب وجلأؤه بشيئين بالاستغفار والذكر .

فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكبا على قلبه وصدأه بحسب غفلته وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه فلا يقبل حقا ولا ينكر باطلا وهذا أعظم عقوبات القلب.

عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه^(٥٠): أن رجلا قال يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله»^(٥١).

وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى فإنها يطمسان نور القلب ويعميان بصره قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾.

(انتهى من "الوابل الصيب" / ص ٥٦).

^(٥٠) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) / صحيح.

^(٥١) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: والذكر المطلق يدخل فيه الصلاة، وتلاوة القرآن، وتعلمه، وتعليمه، والعلم النافع، كما يدخل فيه التسبيح والتكبير والتهليل، ومن أصحابنا من رجح التلاوة على التسبيح ونحوه بعد الفجر والعصر. وسئل الأوزاعي عن ذلك، فقال: كان هديهم ذكر الله، فإن قرأ، فحسن. وظاهر هذا أن الذكر في هذا الوقت أفضل من التلاوة، وكذا قال إسحاق في التسبيح عقيب المكتوبات مئة مرة: إنه أفضل من التلاوة حيثئذ. والأذكار والأدعية المأثورة عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في الصباح والمساء كثيرة جدا. ويستحب أيضا إحياء ما بين العشاءين بالصلاة والذكر، وقد تقدم حديث أنس أنه نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ﴾. ("جامع العلوم والحكم" / ٥٠ / ص ٢٠).

كما أنه أيضا يحفي قوة على البدن. اعجب من هذه الفضيلة: الذكر يلقي قوة بذكر الله. قال الله عز وجل عن قوم هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾^(٥٢) [هود: ٥٢].

وأخرج الشيخان في صحيحيهما من حديث علي بن أبي طالب^(٥٣): أن فاطمة عليها السلام أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسأله خادما^(٥٤) فقال: «ألا أخبرك ما هو خير لك منه؟ تسبحين الله عند منامك ثلاثا وثلاثين وتحمدين الله

^(٥٢) قال الماوردي رحمه الله: ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: يعني شدة إلى شدتك، قاله مجاهد. الثاني: خصباً إلى خصبكم، قاله الضحاك. الثالث: عزاً إلى عزكم بكثرة عددكم وأموالكم، قاله علي بن عيسى. الرابع: أنه ولد الولد، قاله عكرمة. ويحتمل خامساً يزدكم قوة في إيمانكم إلى قوتكم في أبدانكم. ("النكت والعيون" / ٢ / ص ٢٠٥).

^(٥٣) أخرجه البخاري (٥٣٦٢) ومسلم (٢٧٢٧).

^(٥٤) قال ابن حجر رحمه الله: وفيه ما كان عليه السلف الصالح من شطف العيش وقلة الشيء وشدة الحال وإن الله حماهم الدنيا مع إمكان ذلك صيانة لهم من تبعاتها وتلك سنة أكثر الأنبياء والأولياء. ("فتح الباري" / لابن حجر / ١١ / ص ١٢٤).

ثلاثا وثلاثين وتكبرين الله أربعاً وثلاثين ثم قال سفيان إحداهن أربع وثلاثون»^(٥٥).
فما تركتها بعد. قيل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين.

ذكروا في شرح هذا الحديث أن فاطمة أعينت عليها بقدرة من الله فكانت
تباشر مهنتها في المنزل دون العناء الذي كانت تجده مسبقاً، هذا لأن الذكر تكسب
قوة^(٥٦).

حتى إن علي بن أبي طالب قال: فما تركتها بعد قيل ولا ليلة صفين قال ولا
ليلة صفين. فلذلك كان موفقاً في أموره وحروبه التي خاضها مع غيره^(٥٧).

^(٥٥) قال ابن حجر رحمه الله: فهو من باب تلقي المخاطب بغير ما يطلب إيداناً بأن الأهم من المطلوب هو
التزود للمعاد والصبر على مشاق الدنيا والتجافي عن دار الغرور. ("فتح الباري" / لابن حجر / ١١ /
ص ١٢٤).

^(٥٦) قال ابن حجر رحمه الله: وفيه أن من واطب على هذا الذكر عند النوم لم يصبه إعياء لأن فاطمة شكت
التعب من العمل فأحالتها صلى الله عليه وسلم على. ذلك كذا أفاده ابن تيمية. وفيه نظر، ولا يتعين رفع
التعب بل يحتمل أن يكون من واطب عليه لا يتضرر بكثرة العمل، ولا يشق عليه ولو حصل له التعب، والله
اعلم. ("فتح الباري" / ١١ / ص ١٢٥).

^(٥٧) قال النووي رحمه الله في حديث التحذير من الخوارج: وفيه حجة لأهل السنة أن علياً كان مصيباً في قتاله
والآخرون بغاة لاسيما مع قوله صلى الله عليه وسلم: (يقتلهم أولى الطائفتين بالحق)، وعلي وأصحابه الذين
قتلوهم. ("شرح النووي على مسلم" / ٧ / ص ١٦٦).

نعم معاشر المسلمين، ذكر الله عز وجل أمان من النفاق إذا صحبه الإخلاص والمتابعة لرسول الله وكثرة الذكر على اللسان أمان من النفاق^(٥٨). ولذلك جاء في وصف المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا^(٥٩)﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال ابن حجر رحمه الله: والحق أن عليا كان مصيبا في حروبه فله في كل ما اجتهد فيه من ذلك أجران. ("فتح الباري" / ١٢ / ٣٠٩).

^(٥٨) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: فمن أكثر ذكر الله ، فقد باينهم في أوصافهم ، ولهذا ختمت سورة المنافقين بالأمر بذكر الله ، وأن لا يلهي المؤمن عن ذلك مال ولا ولد ، وأن من ألهاه ذلك عن ذكر الله ، فهو من الخاسرين . ("جامع العلوم والحكم" / ٥٠ / ص ٨).

^(٥٩) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في صلاتهم لا يخشعون فيها، ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعمّا يرااد بهم من الخير معرضون.

وقد روى الإمام مالك، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». وكذا رواه مسلم.

("تفسير القرآن العظيم" / ٢ / ص ٤٣٩).

فإذا ذكرت الله كثيراً بإخلاص لا برياء فهذا إن شاء الله مؤذن بالعافية فيك من النفاق بل تنقل بعد هذا إلى موكب الأبرار والأخيار وأولي الألباب^(٦٠).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ^(٦١) فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ما صفتهم؟ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

يعني: هم في كل أحيانهم يذكرون الله لهم أذكار في الصباح وفي المساء وفي الدخول وفي الخروج، وفي السفر وفي الحضر وفي الرخاء وفي الشدة، وعند النوم وفي اليقظة، ملازمون لذكر الله، فهم مؤمنون أولو العقول النيرة الخيرة، ليسوا من المنافقين لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وليسوا يذكرون الله إخلاصاً بل رياء

^(٦٠) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: ولهذا قال: ﴿لأولي الألباب﴾ أي: العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]. ("تفسير القرآن العظيم" / ٢ / ص ١٨٤).

^(٦١) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: أي: يفهمون ما فيها من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته. ("تفسير القرآن العظيم" / ٢ / ص ١٨٤).

الناس إذا ما كانوا في وجوه الناس ذكروا الله، وإلا فالغفلة مخيِّمة على عقولهم وعلى قلوبهم وأفئدتهم فلذلك هم كالموتى وإن كانوا يسيرون على أقدامهم في الدنيا^(٦٢).

^(٦٢) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي : (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره : مثل الحي والميت). ولفظ مسلم: (مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه : مثل الحي والميت) فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت وهو القبر.

وفي اللفظ الأول : جعل الذاكر بمنزلة الحي والغافل بمنزلة الميت فتضمن اللفظان : أن القلب الذاكر كالحى في بيوت الأحياء والغافل كالميت في بيوت الأموات ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم وقلوبهم فيها كالأموات في القبور كما قيل :

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور وكما قيل :

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم فهي القبور الدوارس

وأرواحهم في وحشة من حبيبتهم ... ولكنها عند الخبيث أوانس .

(انتهى من "مدارج السالكين" / ٢ / ص ٤٢٩-٤٣٠).

معاشر المسلمين، ذكر الله عز وجل يأتي بذلك المعنى العظيم الذي استقر في قلوب المؤمنين: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»^(٦٣).

^(٦٣) أخرجه الحاكم في "المستدرک" (٦٣٠٣) / حسن لغيره.

قال الإمام ابن رجب رحمه الله: يعني: أن العبد إذا اتقى الله، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة، فعرفه ربه في الشدة، ورعى له تعرفه إليه في الرخاء، فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه، ومحبة له، وإجابته لدعائه. فمعرفة العبد لربه نوعان:

أحدهما: المعرفة العامة، وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة تقتضي- ميل القلب إلى الله بالكلية، والانقطاع إليه، والأنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل له: وما هو؟ قال: معرفة الله - عز وجل -.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي، وليس معرفته الإقرار به، ولكن المعرفة التي إذا عرفته استحيت منه. ومعرفة الله أيضا لعبده نوعان:

معرفة عامة وهي علمه سبحانه بعباده، وإطلاعه على ما أسروه وما أعلنوه، كما قال: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾، وقال: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾.

والثاني: معرفة خاصة: وهي تقتضي- محبة لعبده وتقريبه إليه، وإجابة دعائه، وإنجاءه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يحكى عن ربه: ((ولا يزال عبيدي يتقرب

أتريد أن يغيثك الله في الشدائد، وأن ينجيك من المعازق والمزالق الخطيرة؟

عليك بذكر الله في أيام الرخاء لتنجو في أيام الشدة. فلذلك قال الله تعالى:
﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(٦٤) [البقرة: ١٥٢].

يذكرك الله في حال الرخاء بالثناء عليك في الملاء الأعلى وفي حال الشدة بالمعونة. نعم والحفظ والرعاية والعناية وينصرك الله على من بغى عليك. يذكرك الله. ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٦٥) [العنكبوت: ٤٥]. قال العلماء: ذكر الله للعبد أكبر من

إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فمَن سألني ، لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه))، وفي رواية : ((ولئن دعاني لأجيبه)).

("جامع العلوم والحكم" / ٢٠ / ص ١٦-١٧).

^(٦٤) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ أمر الله تعالى بشكره، ووعدته على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [إبراهيم: ٧]. ("تفسير القرآن العظيم" / ١ / ص ٤٦٥).

^(٦٥) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وتشتمل الصلاة أيضا على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي: أعظم من الأول. ("تفسير القرآن العظيم" / ٦ / ص ٢٨٢).

ذكر العبد لله^(٦٦). ماذا تفعل؟ ما الذي تقدمه لله من منفعة؟ إذا ذكرت الله إنما تنفع نفسك. ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ذكر الله لك خيرٌ من ذكرك له لأن فيه المعونة والتأييد والحفاظ لك في كل أحوالك ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال^(٦٧): قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم. وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٦٨).

^(٦٦) أخرجه ابن جرير في "تفسيره" (٤٣ / ٢٠) عن ابن عباس (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) قال: ذكر الله للعبد أفضل من ذكره إياه. وهو حسن لغيره.

^(٦٧) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

^(٦٨) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجي لا مسألة البعيد المنادي. وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قرباً عاماً من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده.

و«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه بل هو قرب خاص من الداعي والعابد، كما قال النبي راوياً عن ربه تبارك وتعالى: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً».

نعم أيها المسلمون، ذكر الله علاج نافع ودواء. والله لن تجده في دور الاستشفاء إنما تجده في كتابه. دواء من الأمراض العصبية والغضبية. نعم، من كان به علة في بدنه توجب له الغضب والتعصب في المنافذ وبرما قتل نفسه أو قتل غيره، وربما تردى من سحيق وربما أضر بهاله في ساعة الغضب أو في بأحد عياله أو أصدقائه أو خلانه بسبب ما يكون فيه من النزعات التي هي قرضية مما يعلق بالجسم من الأمراض التي تجعل الإنسان يخرج عن السيطرة على نفسه، يخرج عن التحكم على نفسه. وليس تخفى عليكم تلك الأمراض. إذا كان الإنسان ذاكرًا لله فإذا الله عز وجل يخفف عنه هذا الداء، ويعينه على ضبط نفسه والتحكم بها.

فهذا قرينه من عابده. وأما قرينه من داعيه وسائله فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

وأما قرينة تبارك وتعالى من محبة فنوع آخر، وبناء آخر، وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب "التحفة المكية" على أن العبارة تنبؤ عنه ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبدًا، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب. وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها فتزل قدم بعد ثبوتها. وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم فوقعوا في أنواع من الطامات والسطح. وقابلهم من غلط حجابهم فأنكر محبة العبد لربه جملة وقرينه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوق فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا. انتهى. ("بدائع الفوائد" ٣ / ص ٥١٢-٥١٣ / ط. دار الحديث).

جاء في الصحيحين^(٦٩) من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم^(٧٠)».

ربما كان هذا الغضب متأثرا فيه، وربما كان وراثا له. أرايت أن ذكر الله دواء وعلاج؟ فكيف إذا كانت النزعات الغضبية من الشيطان؟ فربما كان الغضب ناشئا من الأمور العضوية كالأمراض، وربما كان من الأمور الرحانية، كاستفزاز

^(٦٩) أخرجه البخاري (٦١١٥) ومسلم (٢٦١٠).

^(٧٠) قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإذا عاذ العبد بربه كان مستجيра به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويحيره منه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ [فصلت: ٣٤: ٣٦]. وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير؛ لئلا يعوقه الشيطان عنه، وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات، وعند ما يأمره الشيطان بالسيئات؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته"، فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه في شر أو يمنعه من خير، كما يفعل العدو مع عدوه. ("مجموع الفتاوى" / ٧ ص ٢٨٣-٢٨٤).

الشيطان لك واستغلاله للمواقف فيووقعك في حفرة من حفر النيران وإما بأن تقتل أو تخرج كلاماً يخرجك من الملة أو كلاماً لا يرضي الله. نعم، الشيطان وراءك ويطاردك إلى أن تخرج الروح من بين جنبيك لن يتركك الشيطان لأنه قد أقسم على إضلالك^(٧١). فلذلك قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(٧٢)﴾ [فصلت: ٣٦].

^(٧١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بعدوّ لا يفارقه طرفه عين، صاحبه ينام ولا ينام عنه، ويغفل ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته بكل حال، لا يدع أمراً يكيد به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الإنس وغيرهم من شياطين الجن، وقد نصب له الحبائل وبغا له الغوائل، ومدّ حوله الأشرار، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: (دونكم عدوكم وعدو أبيكم، لا يفوتكم، ولا يكون حظّ الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى علي وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن تكونوا شركاءنا في هذه البلية إذا قد فاتتنا شركة صالحهم في الجنة)، ... إلخ. ("الجواب الكافي" / ص ٦٥).

^(٧٢) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسه ولا يقربوه وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾ [المؤمنون: ٩٦] فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم.

ونظير هذا قوله في سورة الأعراف: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩] فأمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه، فقال: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ونظير ذلك قوله في سورة

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم ونفعني وإياكم بسنة سيد المرسلين.

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العالم بما يسره العبد ويخفيه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم شفيع العباد في يوم لا ريب فيه، أما بعد:

فصلت : ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾
[فصلت : ٣٤].

فهذا لدفع شر شياطين الإنس ثم قال : ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ [فصلت : ٣٦] فأكد بيان وبضمير الفصل وأتى باللام في : السميع العليم وقال في الأعراف : إنه سميع عليم وسر ذلك والله أعلم أنه حيث اقتصر على مجرد الإسم ولم يؤكد أنه يريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم فيسمع استعاذتك فيجيبك ويعلم ما تستعذ منه فيدفعه عنك فالسمع لكلام المستعذ والعلم بالفعل المستعاذ منه وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة وهذا المعنى شامل للموضوعين وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سماعه لقولهم وعلمه بهم. ("إغاثة اللهفان" / ١ / ص ٩٦).

معاشر المسلمين، إن ذكر الله عز وجل مأمور به شرعا، لن تفلت من هذا الأمر لأنه من المطالب الشرعية. قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٧٣) [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

^(٧٣) قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان، قد لا يكون عنده محبة تبعته على طلب محبوبه، فأى شيء يحرك القلوب؟ قلنا: يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبيب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الآية [الأحزاب: ٤١-٤٢]

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه، من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة، من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا، وكذلك الخوف، تحركه مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض، والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء، يحركه مطالعة الكرم، والحلم، والعفو.

(انتهى من "مجموع الفتاوى" / ١ / ص ٩٥-٩٦).

وقال الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٧٤) [الأنفال: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٧٥) [الأحزاب: ٣٥].

لا بد أن تذكر الله ولو على أقل تقدير بالأذكار التي تكون في صلاتك إن كنت من أهل الصلاة إن كنت مسلماً لا بد أن تذكر الله ولو على أقل تقدير بما يكون من أذكار الصلاة فكن محفزاً نفسك على كثرة الأذكار لأنها حصن حصين من

^(٧٤) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والمقصود أن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والجلال، كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوه حقاً هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته. ولهذا أمر الله سبحانه بكثرة ذكره في القرآن، وجعله سبباً للفلاح فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. ("جلاء الأفهام" / ص ٤٥٠).

^(٧٥) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أي كثيراً. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين فأى لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له وكان خسارانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله. ("الوابل الصيب" / ص ٥٦).

الشيطان^(٧٦). والعبد إذا كان ذاكرة لله وكان قلبه حاضراً مع لسانه فهو يستظل بظل العرش يوم القيامة حين تدنو الشمس من الخلائق ويبلغون من الغم والههم والكرب ما لا يتيقونه ولا يحتملونه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٧٧): عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه^(٧٨)».

^(٧٦) عن الحارث الأشعري رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها،... وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله». (أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)/ صحيح).

^(٧٧) أخرجه البخاري (الأذان/ من جلس في المسجد/ (٦٦٠)) ومسلم (الزكاة/ فصل إخفاء الصدقة/ (١٠٣١)).

^(٧٨) قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن بكاء الباكي لله، كالذي يبكي من خشية الله . من أفضل العبادات . وقد روي : «عينان لا تمسهما النار : عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله»، وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله

اذكر الله في أوقات الخلوات. أحضر قلبك مع لسانك في الخلوة حتى تكون من هؤلاء السبعة بإذن رب العالمين.

معاشر المسلمين، أنبياء الله ورسل الله لا تنفك قلوبهم وألستهم عن ذكر الله، فلذلك ضربت لنا أمثال عظيمة في سيرهم وأخبارهم أنهم كانوا يلزمون ذكر الله. فهذا موسى صلى الله عليه وآله وسلم لماذا طلب وزيراً من أهله؟ نعم، لم يكن لأحد إحسان على أخيه كمثّل ما لموسى من الإحسان على أخيه لأن الله أكرم أخاه بالنبوة بسؤال موسى لذلك. ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ

خاليا ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شئاله ما تنفق يمينه، ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال، فقال إني أخاف الله رب العالمين».

فذكر صلى الله عليه وآله وسلم هؤلاء السبعة، إذ كل منهم كمل العبادة التي قام بها، وقد صنف مصنف في نعتهم سماه: [اللمعة في أوصاف السبعة]. فالإمام العادل: كمل ما يجب من الإمارة، والشاب الناشئ في عبادة الله: كمل ما يجب من عبادة الله، والذي قلبه معلق بالمسجد: كمل عمارة المساجد بالصلوات الخمس؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]، والعفيف: كمل الخوف من الله، والمتصدق: كمل الصدقة، والباكي: كمل الإخلاص.

(انتهى من "مجموع الفتاوى" / ٢٣ / ص ١٤٤).

بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ^(٧٩) * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿ طه: ٢٩ - ٣٥]

يحتاج إلى أن يبقى مع ذكر الله يخشى من الغفلة التي إذا هجمت على القلب ملأته الكرب. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ^(٨٠)﴾ [طه: ١٢٤، ١٢٥].

هذا سليمان وهو من أنبياء بني إسرائيل: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّاغِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ

^(٧٩) قال الخازن رحمه الله: ﴿كي نسبحك كثيراً﴾ يعني نصلي كثيراً ﴿ونذكرك كثيراً﴾ يعني نحمدك ونثني عليك بها أوليتنا من جميل نعمك. ("تفسير الخازن" / ٤ / ص ٣٦٩).

^(٨٠) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وبالجملية فكما خف البدن لطف الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي، وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية. فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك فيكون نائماً على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول حول العرش. وآخر واقف في الخدمة ببدنه وروحه في السفلى تجول حول السفليات فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى فعند الرفيق الأعلى كل قرة عين وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة. وعند الرفيق الأسفل كل هم وغم وضيق وحزن وحياة نكدة ومعيشة ضنك. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾. فذكره كلامه الذي أنزله على رسوله والإعراض عنه ترك تدبره والعمل به. ("الفوائد" / ص ١٦٨).

عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَنُفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ
وَالْأَعْنَاقِ^(٨١) ﴿ص: ٣٠ - ٣٣﴾.

قطع رقابها وسوقها لأنها حجبته عن ذكر ربه برهة من الزمن. الله أكبر.

وأما نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا تسأل عن حاله مع
الذكر والتسبيح والتكبير وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر^(٨٢). لا
تسأل عن هذا الحال ولكن اقرأ في هديه ثم اعمل بذلك.

روى مسلم^(٨٣) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى
الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه^(٨٤).

^(٨١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ووجه استشهاده بالآية أن سليمان عليه السلام كان يحب الخيل فشغله
استحسانها والنظر إليها لما عرضت عليه عن صلاة النهار ﴿حتى توارت الشمس بالحجاب﴾، فلحقته الغيرة
لله من الخيل إذ استغرقه استحسانها والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقه فقال: ﴿ردوها علي فنفق﴾ يضرب
أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله. ("مدارج السالكين" / ٣ / ص ٤٧).

^(٨٢) قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ
وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ - ٣].

^(٨٣) أخرجه مسلم (٣٧٣).

^(٨٤) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: قالت عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله تعالى على كل
أحيانه. ولم تستثن حالة من حالة وهذا يدل على أنه كان يذكر ربه تعالى في حال طهارته وجنابته وأما في حال

التخلي فلم يكن يشاهده أحد يحكي عنه، ولكن شرع لأمته من الأذكار قبل التخلي وبعده ما يدل على مزيد الأعتناء بالذكر وأنه لا يخل به عند قضاء الحاجة وبعدها. وكذلك شرع للأمة من الذكر عند الجماع أن يقول أحدهم: «بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ما رزقتنا». وأما عند نفس قضاء الحاجة وجماع الأهل فلا ريب أنه لا يكره بالقلب لأنه لا بد لقلبه من ذكر ولا يمكنه صرف قلبه عن ذكر من هو أحب إليه فلو كلف القلب نسيانه لكان تكليفه بالمحال كما قال القائل :

(يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على النافل)

فأما الذكر باللسان على هذه الحالة فليس مما شرع لنا ولا ندبنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نقل عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم. وقال عبد الله بن أبي الهذيل : إن الله تعالى ليحب أن يذكر في السوق ويجب أن يذكر على كل حال إلا على الخلاء.

ويكفي في هذه الحال استشعار الحياء والمراقبة والنعمة عليه في هذه الحالة وهي من أجل الذكر فذكر كل حال بحسب ما يليق بها واللائق بهذه الحال التقنع بثوب الحياء من الله تعالى وإجلاله وذكر نعمته عليه وإحسانه إليه في إخراج هذا العدو المؤذي له لو بقي فيه لقتله فالنعمة في تيسير خروجه كالنعمة في التغذي به وكان علي بن أبي طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه وقال : يا لها نعمة لو يعلم الناس قدرها وكان بعض السلف يقول: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى في منفعته وأذهب عني مضرته. وكذلك ذكره حال الجماع ذكر هذه النعمة التي من بها عليه وهي أجل نعم الدنيا فإذا ذكر نعمة الله تعالى عليه بها هاج من قلبه هائج الشكر. فالذكر رأس الشكر وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ: «والله يا معاذ إني لأحبك فلا تسس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». فجمع بين الذكر والشكر كما جمع سبحانه وتعالى بينهما في قوله تعالى: ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ فالذكر والشكر جماع السعادة والفلاح. ("الوابل الصيب" / ص ٩٥).

معاشر المسلمين، إن لطرح موضوع الذكر في هذه الأيام فائدة وسراً وحكمة، ألا وهو استعداد النفوس للوقوف مع القرآن وذكر الله والتسبيح والتكبير في سائر العام وفي الأيام العشر من ذي الحجة على وجه الخصوص. ولذلك روى البخاري رحمه الله في صحيحه^(٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه -يعني: العشر الأول من ذي الحجة-» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء»^(٨٦).

وإن الذكر يلعب بالميزية من بين سائر الأعمال الصالح من العشر الأول من ذي الحجة كما أن القيام والصلاة والتهجد والسجود والهجد بين يدي الله في العشر الأواخر من رمضان يظهر لمعانه وبريقته من بين سائر الأعمال في العشر الأواخر ليالي العشر. يظهر مزية الذكر. ولذلك تجدون المسلمين في يوم عرفة يذكرون الله بالتكبير وفي يوم النحر كذلك وأيام التشريق كذلك، وهكذا الحجاج الذين يقصدون المشاعر يذكرون الله عز وجل بالتلبية والتكبير.

^(٨٥) أخرجه البخاري (٩٦٩).

^(٨٦) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: وهذا الحديث نص في أن العمل المفضول يصير فاضلاً إذا وقع في زمان فاضل، حتى يصير أفضل من غيره من الأعمال الفاضلة؛ لفضل زمانه. وفي أن العمل في عشر ذي الحجة أفضل من جميع الأعمال الفاضلة في غيره. ("فتح الباري" / لابن رجب / ٧ / ص ٥٢).

عن السائب بن خلاد الأنصاري رضي الله عنه^(٨٧) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جاءني جبريل فقال يا محمد مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية . فإنها من شعار الحج»^(٨٨).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما^(٨٩) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يلبي إلا لبي من عن يمينه أو عن شماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا»^(٩٠).

وأيّن تكون هذه التلبية إلا أن تكون في العشر الأول من ذي الحجة؟

^(٨٧) أخرجه أحمد (١٦٦١٦) وأبو داود (١٨١٤) و ابن ماجه (٢٩٢٣) والنسائي (٢٧٥٢)، وهو حديث صحيح.

^(٨٨) قال المناوي رحمه الله: أي من أعلامه وعلاماته وأعماله. ("فيض القدير" / ١ / ص ٩٧).

وقال العيني رحمه الله: وفيه حجة للجمهور في استحباب رفع الأصوات بالتلبية وقد جاءت أحاديث في رفع الصوت بالتلبية منها حديث خلاد بن السائب رواه الأربعة. ("عمدة القاري" / ١٤ / ص ٢٩٢).

^(٨٩) أخرجه الترمذي (٨٢٨) / حسن.

^(٩٠) قال الطيبي رحمه الله: لما نسب التلبية إلى هذه الأشياء عبر عنها بما يعبر عن أولى العقل. (كما في "تحفة الأحوذى" / ٣ / ص ٤٧٦).

نعم أيها المسلمون، ولذا كان الصحابة يصرخون بها صراخاً^(٩١)، نعم، بل ما شرع الحجاج أصلاً ابتداءً وختماً إلا لإحياء هذا الذكر ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧].

وكذلك في يوم النحر إنما يذبح الناس ليس لقصد الأكل والشرب فحسب، ولا للتفكه والتنعم من لحوم بهيمة الأنعام، بل لذكر الله. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤]، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

^(٩١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وتستحب التلبية على كل حال قائماً وقاعداً ومضطجعاً وسائراً ونازلاً وطاهراً وجنباً وحائضاً إلى غير ذلك من الأحوال. ("شرح العمدة في الفقه" / ٢ / ص ٥٩٨).

^(٩٢) قال شيخ الإسلام رحمه الله: والتسمية على الذبيحة مشروعة، لكن قيل: هي مستحبة كقول الشافعي. وقيل: واجبة مع العمد وتسقط مع السهو كقول أبي حنيفة ومالك وأحمد في المشهور عنه. وقيل: تجب مطلقاً، فلا تؤكل الذبيحة بدونها، سواء تركها عمداً، أو سهواً كالرواية الأخرى عن أحمد اختارها أبو الخطاب وغيره، وهو قول غير واحد من السلف. وهذا أظهر الأقوال؛ فإن الكتاب والسنة قد علق الحل بذكر اسم الله في غير موضع؛ كقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤] و [قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وفي الصحيحين أنه قال: "ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا" وفي الصحيح أنه قال لعدي: "إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم

﴿وَالْبُذْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً
فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ﴾ [الحج: ٣٦]

وحسّن بعض أهل العلم ما رواه أهل السنن^(٩٣) من حديث أبي بكر الصديق، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل: أي الحج أفضل؟ قال: «العج والثج»^(٩٤).

العج هو التلبية ورفع الصوت بها. والثج هو إراقة دماء بهيمة الأنعام. وهذا فيه ذكر. إذن احرصوا -بارك الله فيكم- على إحياء هذه العشر في أيامها ولياليها

الله فقتل فكل، وإن خالط كلبك كلاب آخر فلا تأكل، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره".
("مجموع الفتاوى" / ٣٥ / ص ٢٣٩).

^(٩٣) أخرجه الترمذي (٨٢٧) وابن ماجه (٢٨٩٦).

^(٩٤) قال شيخ الإسلام رحمه الله: والتلبية هي: إجابة دعوة الله تعالى لخلقه، حين دعاهم إلى حج بيته على لسان خليله إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم، والملبي هو المستسلم المتقاد لغيره، كما ينقاد الذي لب وأخذ بلبته. والمعني: إنا مجيبوك لدعوتك؛ مستسلمون لحكمتك، مطيعون لأمرك مرة بعد مرة، لا نزال على ذلك، والتلبية شعار الحج، فأفضل الحج العج والثج، فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة دماء الهدى. ولهذا يستحب رفع الصوت بها للرجل، بحيث لا يجهد نفسه، والمرأة ترفع صوتها بحيث تسمع رفيقتها. ("مجموع الفتاوى" / ٢٦ / ص ١١٥).

بذكر الله. ومن أراد أن يتوسع في العمل الصالح أو يصوم فلا حرج لأن جماهير أهل العلم قد ذكروا دخول إلا يوم النحر فإنه لا يجوز صومه.

معاشر المسلمين، نسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا وأن يرزقنا علماً بما ينفعنا.

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين، وأذل الشرك والمشركين اللهم قاتل الكفرة المحلدين أعداءك أعداء الدين اللهم اجعل من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً، ومن كل عسر يسراً، ومن كل بلاء عافية، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا همماً إلا فرّجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا حاجة إلا يسرتها يا رب العالمين. اللهم اجعل بلدنا هذا آمناً مطمئناً سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين. اللهم من أراد ببلدنا هذا سوء فاشغله بنفسه واجعل كيده في نحره، واجعل تدميره في تدبيره.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

صنعاء، ٢٧ ذو القعدة ١٤٣٦ هـ.